الموسم

حملة هولاكو خان على إيران والقضاء على الإسماعيلية*

الدكتور فؤاد الصياد

بعد أن انتصر المغول على السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، وقعت أحسن الأقاليم في إيران تحت نفوذ المغول، الذين لم يجدوا مقاومة تذكر في تسخير تلك المناطق، ولم تبقَ هناك قوة تستطيع أن تقف أمام هؤلاء الغزاة لتصد هجماتهم؛ ذلك لأن السلطان محمد كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي هو وحده هو سلطان البلاد جميعها. فلما هزمه المغول، لم يبقَ في البلاد من يمنعهم ولا يحميها[١]..

ولقد كان الحكام المسلمون خارج إيران يعرفون تمام المعرفة أهمية قيام الدولة الخوارزمية. فمن المعلوم أنه لما قتل جلال الدين منكبرتي، ذهب بعض خواص الأشرف موسى الأيوبي يهنئونه بقتل عدوه، فرد عليهم قائلاً: «تهنئوني به وتفرحون؟!... سوف ترون غبَّه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام. وما كان الخوارزمي إلاّ مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج[٢]».

ولقد صدقت نبوءة الأشرف: إذ لم يكن منكوقا أن يتربع على عرش المغول، ويقضي على الفتن الداخلية، ويتخلص من المناوئين لسياسته، حتى نراه في السنة الثانية من حكمه، يوجه همته نحو الغزو والفتح، ويعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية، فيكلف أخاه هولاكو خان بقيادة الحملة على إيران.

يحدثنا المؤرخ رشيد الدين[٣] أن يكون منكوقاآن حرص على إعداد هذه الحملة إعداداً دقيقاً يكفل لهولاكو النصر؛ فلقد أمده بكثير من القوات التي مارست الحروب، واقتحمت ميادين القتال، وخرجت منها مظفرة منتصرة. ولم يكتف بهذا، بل أرسل رسله إلى بلاد الخطا لاستدعاء ألف أسرة من أولئك الذين مهروا في استخدام أدوات القتال مثل المنجنيق وقاذفات النفط، ورمي السهام. وبالإضافة إلى ذلك؛ أصدر منكو أوامره باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان لتكوين حرس خاص لهولاكو.

---

* د. فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ١/٢٣١-٢٤٥ بيروت ١٩٨٠

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٣٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٧.

(٣) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، نشر كاترمير، ص١٣٢ وما بعدها؛ المصدر نفسه، الترجمة العربية، ص٢٣٤ ومابعدها.

وقبل قيام الجيش بمهمته، أرسل الرسل والمرشدين؛ فاختبروا الطريق الذي سوف يخترقه جيش هولاكو ابتداء من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، ووضعوا أيديهم على جميع المزارع والمراعي التي تمتد على طول الطريق. وأقاموا الجسور على الأنهار العميقة وعلى مجاري المياه السريعة. وقد عني منكو عناية خاصة بتموين هذا الجيش من جميع أنحاء الإمبراطورية.

وبعد أن جهز منكوقا أن كل ما يلزم لهذه الحملة من الرجال والعدة والعتاد، رسم لأخيه هولاكو خان الخطة التي سوف يتبعها، فقال له[٤]: «إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها؛ فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه، في الكليات والجزئيات، وخص كل من يطيع أوامرك، ويجتنب نواهيك، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر - بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصيك، فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به. وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون».

«وإذا فرغت من هذه المهمة، فعليك أن تتوجه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد، الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً. أما إذا تكبر وعصى، فألحقه بالآخرين من الهالكين. كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور، العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم. وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال. وثق أنك بقوة الله العظيم، سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة. وشاور دوقوز خاتون[٥] في جميع القضايا والشئون».

وكان منكو واثقا تماماً من أن هولاكو يستطيع بجيشه القوي أن يسيطر على تلك الأقاليم، وأن يكون منها مملكة خاصة به وبأبنائه من بعده. ولكنه مع هذا أوصى أخاه بأن يعود إلى مقره الأصلي حينما يفرغ من إنجاز مهمته.

هولاكو والإسماعيلية:

والآن نتساءل: ما الذي جعل المغول يغيرون نظرتهم إلى جماعة الإسماعيلية بحيث يشير منكو على أخيه هولاكو بأن يبدأ بغزو إقليم قهستان مقر هذه الطائفة، ويكلفه بتحطيم قلاعهم وحصونهم مع أنهم ظلوا مع المغول في صفاء مدة طويلة؟!... ألم يكن جلال الدين حسن بن محمد زعيم الإسماعيلية هو أول حاكم يرسل رسولاً إلى جنكيز خان ليقدم له فروض الخضوع والطاعة، عندما جاء على رأس جيشه إلى إقليم ما وراء النهر، وبعد عبوره نهر

---

(٤) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، نشر كاترمير، ص ١٤٢ - ١٤٤؛ الترجمة العربية، ص٢٣٦ - ٢٣٧.

(٥) كانت زوجة تولوي المفضلة عنده، ثم آلت من بعده إلى ابنه هولاكو خان، فتزوج منها جريا على عادة المغول الذين كانوا يتزوجون من نساء ابائهم. وكانت امرأة حازمة، ذات شخصية قوية. وتدين بالمسيحية. وكان هولاكو يعزها ويحترمها ويستشيرها في مهام الأمور.

سيحون[٦]؟!... أليس الإسماعيلية هم الذين اتصلوا بالمغول ودعوهم أكثر من مرة لمهاجمة السلطان جلال الدين منكبرتي، والقضاء نهائياً على الدولة الخوارزمية[٧]؟!...

للإجابة على هذين السؤالين نقول: إن الإسماعيلية أنفسهم عندما رأوا أن مطامع المغول لا تقف عند حد، وأن فتوحهم مستمرة في الصين وأوروبا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى، خافوا خطرهم، وصمموا على مقاومتهم؛ فأخذوا يرسلون رسلهم إلى إنجلترا وفرنسا سنة ٦٣٧هـ، (١٢٣٩م) طالبين معونة الأوروبيين الذين عرفوهم إبان الحروب الصليبية.

ولكنهم لم يلقوا مجيباً، يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة ونشستر :Winchester «دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضهم بعضاً حتى يقضي عليهم نهائياً، وعندئذ سوف نقيم على أنقاضهم الكنيسة الكاثوليكية العالمية، فنكون حقاً راعياً واحداً وقطيعاً واحداً[٨]». ولم يقف الإسماعيلية عند هذا الحد، بل إنهم حاولوا تكوين اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصد الخطر المشترك الذي يتهددهم جميعا.

ولابد أن هذه الأخبار قد وصلت إلى المغول، ووضح لهم عدم إخلاص هذه الطائفة. ولعل هذا يفسر لنا المعاملة السيئة التي لقيها رسل الإسماعيلية الذين أوفدوا إلى قراقورم للاشتراك في القوريلتاي الذي انعقد هناك لانتخاب «كيوك» خاناً أعظم للمغول، وكان ذلك في سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م).

وعندما كانوا المغول يفكرون في إزالة الدولة العباسية، أدركوا أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم، وقد تحول دون تحقيق أطماعهم في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي. لهذا أوصى منكوقاآن أخاه هولاكو بالقضاء على هذه الجماعة قبل مسيره إلى بغداد[٩] قضاء مبرماً فيخرب قلاعهم، ويجعل أعاليها أسافلها، ولا يبقي منها أي أثر.

ولاشك أن العامل الهام الذي شجع المغول على مهاجمة الإسماعيلية هم المسلمون أنفسهم الذين كانوا تحت حكم المغول؛ فلقد ضج هؤلاء بالشكوى من الإسماعيلية بسبب ما لاقوه منهم من عنت وإرهاب وظلم وجور، لاسيما أهل قزوين الذين كانوا يجاورونهم، وكانوا في نضال دائم معهم؛ لأنهم كانوا يعتنقون مذهب أهل السنة، وكانوا يغالون ويتعصبون لهذا المذهب.

يقول صاحب الفخري[١٠]: «حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الافتخاري، قال: أذكر ونحن بقزوين إذا جاء الليل جعلنا جميع ما لنا من أثاث وقماش ورحل في سراديب لنا في دورنا غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة، فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل القزاونة للسكاكين وكثر حملهم

---

(٦) انظر رشيد الدين: جامع التواريخ: قسمت إسماعيليان، وفاطميان، ونزاريان، وداعيان، ورفيقان، ص١٧٨ تحقيق محمد تقي دانش بزوه، محمد مدرس (زنجاني)، طبع طهران: D'Ohsson: Histore des Mongols, Vol, III P. 174.

(٧) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٨٣، النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٢٤٦ - ٣٤٠.

(٨) انظر المقريزي: كتاب السلوك، ج١ ق٢، ص٣٨٣، حاشية ٤.

(٩) Von Hammer: Histore de L'Ordre des Assassins, P. 257

(١٠) ابن طباطبا: الفخري في الاداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ٢٥ - ٢٦، الطبعة الثانية.

للسلاح. ومازال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضي قزوين، وتوجهه إلى قاآن، وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان».

ويذكر صاحب طبقات ناصري[١١] أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً وعالماً كبيراً، ذهب مرة إلى منكوخان، وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة، ويخلص الناس من فسادهم. وفي أثناء حديثه، وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين، صدرت منه كلمات جافة أغضبت مكنوخان، وكان لها أثر عميق في نفسه، إذ نسب إليه الضعف والعجز؛ لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الذين يدينون بدين يخالف المسيحيين والمسلمين والمغول. وما ذاك إلاّ لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال، بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته، فيخرجون من الجبال والقلاع؛ ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم.

خرج هولاكو خان على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم في سنة ٦٥١هـ (١٢٥٣م). وقد أسرع أمراء الأطراف إلى تقديم كافة التسهيلات لتموين الجيش. كما أنهم أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق من الحجارة والأشواك. وهكذا صار هولاكو خان وجنوده يقطعون المراحل والمنازل، حتى وصلوا إلى سمرقند في شعبان سنة ٦٥٣هـ (فبراير ١٢٥٥م). ثم توجه هولاكو خان إلى مراعي «كان كل»، وكان مسعود بك حاكم ما وراء النهر وتركستان قد أقام له هناك خيمة مطرزة بالذهب، فأمضى فيها هولاكو ما يقرب من أربعين يوماً، وهو مشغول بالأنس والشراب. ثم رحل منها إلى مدينة كش Kesch التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من سمرقند، فمكث فيها مدة شهر كان خلاله موضع تكريم الوجوه والأعيان في إقليم خراسان، أولئك الذين أسرعوا إليه حاملين هداياهم، ومقدمين له فروض الخضوع والطاعة، وكان على رأسهم الأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول.

بعد ذلك وجه هولاكو خان عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران يقول فيها: «لقد أتينا هنا بناءً على أمر الخان الأعظم، وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية، والقضاء على تلك الطائفة. فإذا ساهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم، وستحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم، فإننا حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة، فسوف لا نقبل عذركم، ونتوجه إليكم فيجري على ولايتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم[١٢]».

وعندما ذاع نبأ وصول هولاكو إلى إيران، تلقى الثناء والترحيب من أتباعه الجدد ابتداء من شمس الدين كرت ملك هراة، ومن السلغري أبي بكر سعد بن زنكي أتابك فارس إلى السجلوقيين القائمين في آسيا الصغرى وهما كيكاوس الثاني وقلج آرسلان الرابع[١٣].

(١١) انظر الجوزجاني: طبقات ناصري، ص ٤١٣ - ٤١٤.

(١٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، نشر كاترمير، ص١٥٠؛ نفس المصدر، الترجمة العربية، ص٢٤٠.

(١٣) انظر: Grousset: L Empire des Steppes, P. 247.

وفي ذلك الوقت كان جماعة الإسماعيلية يستوطنون الجبال في ولاية طالقان «وروذبار ألموت[١٤]» وكان لهم في تلك المناطق قلاع حصينة تبلغ الخمسين أشهرها وأمنعها ثلاث: ألموت وميمون دز ولنبه سر[١٥]. وكان الإسماعيلية يتخذون قلعة ألموت[١٦] عاصمة لهم وقاعدة لملكهم. كما كانت لهم قلاع أخرى محكمة في غير روذبار ألموت في قومس[١٧] وقهستان يحكمها حاكم يقال له «محتشم».

سار القائد المغولي «كيتُوبوقا نويان[١٨]» في طليعة جيش هولاكو خان إلى قهستان، وهي مناطق الجبال الواقعة بين هراة ونيسابور، فاستطاع أن يستولي على كثير من القلاع الموجودة هناك، غير أنه عندما تقدم إلى قلعة «كردكوه» وجدها حصينة محكمة، فأمر جنوده بحفر خندق عميق حولها.

ولكن طال الحصار على هؤلاء المدافعين: فانتشر الوباء بينهم لندرة الماء والطعام؛ فكان ذلك سبباً في وفاة الكثيرين منهم. وعندما علم بذلك علاء الدين حاكم الإسماعيلية في ذلك الوقت، خشي مغبة الأمر، وخاف أن تسقط القلعة في أيدي المغول إن استمر الحال على هذا المنوال؛ فلم يجد مفراً من تقديم المساعدة السريعة إلى هؤلاء المحاصرين، فأرسل ١١٠ شخصاً من الفدائيين المشهورين لإنقاذ أهالي هذه القلعة. وحدث أن فتاة كانت قد تزوجت من أمير إسماعيلي داخل القلعة، فخضبوا يديها وقدميها بالحناء، ثم غسلوها بالماء. ولما كان الماء غزير الوجود شربت طائفة من المرضى من ذلك الماء الملوث بالحناء، فلم يمت واحد منهم. وبهذا وضح للأهالي فائدة الحناء في دفع الوباء، فطلبوا المزيد من هذا الصنف[١٩].

وقد اخترق هؤلاء الفدائيون صفوف المغول، وكان كل منهم يحمل بعض الحناء والملح؛ لأن الملح كان قد نفد من القلعة. ومروا جميعاً دون أن يصابوا بأذى ما عدا شخصاً واحداً سقط في الخندق، فكسرت ساقه. وقد حمله زملاؤه على أكتافهم، وذهبوا به إلى القلعة. وبهذه النجدة قوي موقف الإسماعيلية في هذه القلعة، وصاروا أقدر على المقاومة والصمود في وجه أعدائهم.

وفي نهاية شوال سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٥م) وجد علاء الدين محمد زعيم الإسماعيلية مقتولاً في مكان يدعى «شيركوه[٢٠]». ويقال إن الحسن المازندراني الحاجب، هو الذي قتله بالاتفاق مع

(١٤) المحل الرئيسي لتجمع الإسماعيلية، ويفصله عن قزوين ستة فراسخ.

(١٥) حمد الله القزويني: نزهة القلوب، ص٦١.

(١٦) ذكر زكريا بن محمد القزويني في كتابه آثار البلاد، ص٢٠٠ أن ألموت قلعة حصينة من ناحية روذبار بين قزوين وبحر الخزر، على قلة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها، وهي كرسي ملك الإسماعيلية. قيل إن بعض ملوك الديلم أرسل عقابا للصيد، وتبعه فراه، ووقع على هذا الموضع، فوجوده موضعاً حصيناً، اتخذه قلعة، وسماها «اله اموخت» (اله بمعنى عقاب وأموت مخفف من آموخت) أي تعليم العقاب بلسان الديلم. ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لأنها سميت في سنة ست وأربعين وأربعمائة، وهي م.و.ت.

(١٧) حاليا سمنان ودامغان.

(١٨) يكتب أيضا كيتبوقا، كتبوقا، كتبغا، كتبوغا.

(١٩) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، نشر كاترمير، ص١٧٢؛ نفس المصدر، الترجمة العربية، ص٢٤٤- ٢٤٥.

(٢٠) اسم قرية وواد وجبل يقع في القسم الغربي من ناحية ألموت (انظر الجويني: ج٣، ص٤٢٥، حواشي العلامة القزويني).

خورشاه بن علاء الدين. وكان المازندراني أخص الخواص بالنسبة لعلاء الدين، كما كان موضع أسراره، ولا يفارقه ليلاً ونهاراً. وكان ركن الدين خورشاه يحقد على أبيه، بسبب سوء معاملته له، ولأنه خلعه من ولاية العهد. ولكن الإسماعيلية لم يقبلوا بذلك، جريا وراء تقليدهما القاضي بأن النص الأول هو الصحيح، وأن عهد الإمام لا ينقض[٢١].

والدليل على أن ركن الدين كان متواطئا مع الحسن المازندراني على قتل أبيه، هو أن ركن الدين عندما خشي أن يفشي المازندراني هذا السر، أرسل إليه أحد أتباعه، فقتله. ثم أحرقت جثته، كما أحرقوا أبناءه الثلاثة، وكانوا ولدا وطفلتين[٢٢]. وبعد مقتل علاء الدين محمد جلس ابنه ركن الدين خورشاه على عرش الإسماعيلية.

وفي غرة ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ (٢يناير ١٢٥٦م) عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون، وتقدم نحو تلك القلاع المنيعة، وأخذ هو وقواده يعملون في تخريبها وتحطيمها. ولكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه إذا اعتمد على القوة وحدها في الاستيلاء على تلك القلاع، فإن ذلك سوف يكلفه مزيداً من التضحية فضلاً عن طول الوقت، وذلك نظرا لمناعة هذه القلاع، ولاستماتة الفدائيين في الدفاع عنها، فلجأ إلى سياسة الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد. وقد نجحت هذه السياسة بالفعل: فعندما أرسل هولاكوخان الملك شمس الدين كرت برسالة إلى ناصر الدين[٢٣] محتشم الإسماعيلية في قلعة «سرتخت» يدعوه إلى الدخول في طاعته، امتثل لهذا الامر، وقصد هولاكوخان في صحبة شمس الدين كرت حيث قدم للخان جملة من الهدايا والتحف بعد أن قبل الأرض بين يديه. فتعطف هولاكو عليه وقبل تلك الهدايا، ثم قال له: «إنك نزلت من القلعة، وقبلت الخضوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك. فلماذا لم تنزل معك سكان القلعة، وتحثهم على التسليم؟!...»

فأجاب ناصر الدين: «إن لهم ملكا يدعى خورشاه، يأتمرون بأمره[٢٤]».

بعد ذلك أنعم عليه هولاكوخان بلوحة ذهبية «بايزه» ومرسوم «يرليغ» ونصبه حاكما على مدينة «تون»، إلى أن توفي في شهر صفر سنة ٦٥٥هـ (يناير ١٢٥٧م).

ولما فرغ هولاكو من هذه المهمة، صار ينتقل من مكان إلى آخر، حتى وصل إلى حدود زاوه[٢٥] وخواف[٢٦]. وحدث أن اعتلت صحته، فترك الميدان لقواده إلى أن يشفى من مرضه. فلما

---

(٢١) عبد الفتاح السرنجاوي: النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية، ص٢٨٢.

(٢٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (قسمت اسماعيليان وفاطميان، ونزاريان، وداعيان ورفيقان) ص١٨٤.

(٢٣) هو ناصر الدين ابو الفتح عبد الرحيم بن أبي منصور محتشم قهستان. كان رجلا كريما فاضلا، يقرب إليه العلماء والأدباء، ويميل إلى مجالستهم، وخاصة الرياضيين منهم. عاش في بلاطه مدة العالم الرياضي الكبير الخواجة نصير الدين الطوسي، وألف له كتاب «أخلاق ناصري» باللغة الفارسية في حدود سنة ٦٣٣هـ، وقدمه باسمه. توفي ناصر الدين في سنة ٦٥٥هـ. (انظر منتخب أخلاق ناصري، نشر جلال همائي، ص ح خ من المقدمة.

(٢٤) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في ايران)، نشر كاترمير، ص١٧٦؛ نفس المصدر، الترجمة العربية، ص٢٤٦.

(٢٥) كوره بخراسان.

(٢٦) مدينة بخراسان بالقرب من نسا، كبيرة آهلة ذات قرى وبساتين ومياه كثيرة.

انتهى قواده من مهمتهم، لحقوا به، وسار الجميع إلى طوس، ومنها إلى خبوشان. ومن هناك أرسل هولاكو رسله إلى خورشاه، يطلب إليه الخضوع والتسليم.ولم ينتظر الرد، بل شرع في الهجوم. وفي العاشر من شعبان سنة ٦٥٤هـ (يناير١٢٥٦م) قصد خرقان وبسطام، وشرع هو وجنوده يفتحون القلاع الواحدة بعد الأخرى، حتى تمت لهم الغلبة على أكثرها، ولم تستعص عليهم أول الأمر إلا قلعتا ميمون دز وألموت؛ إذ طال حصارهم لهاتين القلعتين. وأخيراً أرسل هولاكو رسله مرة أخرى إلى قلعة ميمون دز، حيث كان يقيم خورشاه، وذلك لتهديده وتخويفه حتى يسارع إلى التسليم.

في ذلك الوقت كان الأصدقاء الثلاثة: الخواجة نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة[٢٧] يقيمون مجبرين في قلعة «ميمون دز[٢٨]»، وكانوا قد سئموا الإقامة عند الإسماعيلية، لما رأوه من أفعال خورشاه السيئة، ولما لمسوه من ظلمه وجوره، فمالوا إلى هولاكو خان، وودوا لو وجدوا الخلاص على يده من هذا السجن الذي هم فيه محصورون. فبدأوا يتشاورون سرا، واتفقوا على أن يقنعوا خورشاه بالتسليم. وعلى هذا صاروا يزينون له النزول على حكم هولاكو، وعدم مقاومته: لأن في هذا نجاته له ولأسرته.

ولما رأى هولاكو أن خورشاه يراوغه ويداوره، عقد العزم على فتح القلعة عنوة، فشدد الحصار عليها من جميع الجهات. ولكن مع هذا تعذر عليه اقتحامها. فاستشار هولاكو النبلاء والأمراء من المغول في استمرار الحصار أو العدول عنه، والعودة إلى قواعدهم، والانتظار حتى يحل الربيع، فقالوا له: «إننا في وقت الشتاء، وحيواناتنا نحيفة عجفاء، والعلف منعدم، ويجب المبادرة بنقل العلف من طرف الأرمن أو حدود كرمان. وإذن فمن الأفضل أن نعود إلى قواعدنا[٢٩]». ولكن بعض قواد هولاكو أصروا على الاستمرار في ضرب الحصار حول هذه القلعة. وأخيرا أرسل هولاكو الرسالة إلى خورشاه ملؤها التهديد والوعيد، يعرض فيها أنه إذا نزل من القلعة، وتخلى عن المقاومة، وتوجه إلى معسكر الخان: فإن تصرفه هذا سوف يكون سببا في إنقاذ حياة طائفة كبيرة من الضعفاء المساكين. وأما إذا تلكأ، ولم يقدم نفسه خلال خمسة أيام، فإن عليه أن يستعد لحرب ضروس.

ولقد كان لهذه الرسالة أثرها البالغ في نفس خورشاه، فاستشار أركان دولته، واستقر الرأي على أن يرسل إلى هولاكوخان الخواجة نصير الدين الطوسي مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة، يحملون التحف والطرائف الكثيرة، فوصلوا إلى معسكر هولاكو في يوم الجمعة ٢٧شوال سنة ٦٥٤هـ.

وأخيراً وجد «ركن الدين خورشاه» أن الأمر قد خرج من يده، ولم تعد له طاقة على المقاومة. كما أن اليأس كان قد تطرق إلى نفوس رجاله المحاصرين، وفقدوا كل أمل في الصمود.

---

(٢٧) هو جد المؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله.

(٢٨) انظر ميرخواند: روضة الصفا، ج٥، ص٧٦. طبع لكهنو.

(٢٩) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، نشر كاترمير، ص٢١٠؛ نفس المصدر، الترجمة العربية، ص٢٥٣ ٢٤٥.

فنزل من قلعة ميمون دز التي كان يقيم فيها. وكان ذلك في يوم الأحد غرة ذي القعدة سنة ٦٥٤هـ، وسلم نفسه لهولاكو مظهراً الخضوع والطاعة.

بعد ذلك توجه هولاكو إلى معقل الإسماعيلية في ألموت، واستدعى ركن الدين خورشاه ليحث المدافعين على التسليم. ولكن قائد القلعة رفض أن ينصاع لنصائح خورشاه. فما كان من هولاكو إلاّ أن أمر جنوده بضرب الحصار حول القلعة. ثم شنوا هجوماً عاماً عليها استمر عليها ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، أرسل هولاكو إلى المحاصرين منشوراً يؤمنهم على حياتهم إذا ما أسرعوا إلى التسليم، فاستجاب قائد القلعة لنداء هولاكو، ونزل من القلعة، وسلمها للقائد المغولي. وعندئذ صعد المغول إليها، فحطموا ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال. وقد طلب السكان مهلة ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم.

وفي اليوم الرابع اقتحم الجنود القلعة، وأعملوا فيها يد التخريب والتدمير بعد أن استولوا على الكنوز والأموال. كذلك وقعت في أيديهم تلك المكتبة النفيسة التي تعب الإسماعيلية في إعدادها، وصرفوا في ذلك سنوات عديدة، حتى طبقت شهرتها الآفاق، وكانت عاملاً هاماً في إذاعة صيت تلك الجماعة.

وقد استأذن المؤرخ عطا ملك الجويني «هولاكوخان» في أن يطلع على محتويات تلك المكتبة، ليبقى منها الصالح، ويحرق ما دون ذلك من الكتب التي تتناول عقائد الإسماعيلية الفاسدة (بزعمه). وهكذا استطاع أن ينقذ من الهلاك مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات الرصد. ومن بين الكتب التي عثر عليها عطا ملك كتاب سركذشت سيدنا (أي سيرة سيدنا) الذي كان يشتمل على شرح أحوال الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده. وقد ضمن الجويني خلاصة هذا الكتاب في الجزء الثالث من مؤلفه «تاريخ جهانكشاي[٣٠]»، فحفظ لنا بذلك تاريخ هذه الجماعة من الضياع.

ولما تأكد هولاكوخان من صدق وإخلاص نصير الدين الطوسي ومرافقيه - ممن كانوا يقيمون مكرهين في قلاع الملاحدة - شملهم بعطفه، ورفع قدرهم، وألحقهم بخدمته. ثم أمر فأُعطيت لهم الدواب اللازمة لحمل أسرهم وأمتعتهم، وكل ما يتعلق بهم إلى معسكره، وصيّرهم من أتباعه وملازميه.

أما عن مصير ركن الدين خورشاه، فقد عامله هولاكو خان معاملة حسنة؛ إذ أنعم عليه، ومنحه فتاة مغولية ليتزوج منها، واختار له مدينة قزوين لتكون مكاناً لإقامته، ولحفظ أمتعته وأمواله، وليتخذها سكناً لأتباعه.

والآن نتساءل لِمَ أبقى هولاكوخان على خورشاه، ولِمَ عامله هذه المعاملة الكريمة رغم مراوغته ومقاومته للمغول مدة طويلة؟!... يجيب المؤرخ رشيد الدين عن هذا السؤال فيقول[٣١]: «لما كان هولاكوخان قد قطع العهد على نفسه لخورشاه بأن يؤمنه على حياته؛ فإنه لم يشأ أن

(٣٠) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٢٧٠.

(٣١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، نشر كاترمير، ص٢١٦ نفس المصدر، الترجمة العربية، ص٢٥٧ - ٢٥٨.

يتحلل من هذا العهد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن هولاكو كان يعرف جيداً أنه لازالت هناك قلاع كثيرة تخص الإسماعيلية، موجودة في هذه الديار، وفي بلاد الشام. وهذه وتلك يمكن استخلاصها دون إراقة دماء، وذلك بتوجيه خورشاه ونفوذه باعتباره زعيمهم الأكبر. وإلاّ كان على هولاكو أن يصرف السنوات العديدة، فضلا عن الجهود المضنية حتى يتيسر له فتح هذه القلاع الحصينة.

ولكن هذه المعاملة القائمة على التسامح لم تدم طويلاً، فقد أرسله هولاكو إلى بلاط أخيه في منغوليا. فلما علم هذا الخان أن خورشاه في طريقه إليه خاطب أتباعه قائلاً: لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثاً على الدابة التي يركبها؟!... ثم أرسل من قبله شخصاً قضى عليه. وتبع ذلك حركة تقتيل في جميع أفراد أسرته وأقاربه من الرجال والنساء، ولم يستثنوا حتى الأطفال. وكان ذلك في موضع يقع ما بين أبهر وقزوين. وأغلب الظن أن هولاكو كان يريد أن يبدو إلى آخر لحظة محافظاً على عهده وميثاقه، فاتفق مع أخيه منكو على الخلاص من خورشاه بهذه الطريقة.

ولقد كان الاندحار طائفة الإسماعيلية رنّة فرح وسرور عمت العالم الإسلامي رغم ما كان يعانيه من المغول، ورغم ما كان يتوقعه على أيديهم من أحداث أخرى جسام؛ وما ذلك إلا لأن هذه الفرقة التي قاومت في القرن السادس كل جهود سلاطين السلاجقة، واستطاعت أن تفزع الخلفاء العباسيين وترهبهم - كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي، والتفرق في العالم الإسلامي. فإذا كان هولاكو قد أبادها أخيراً، فإنما يكون قد أدى بذلك خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة[٣٢].

يقول الجويني: «حقاً!... لقد كان هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين، وتداركاً للدين من الخلل. وإن الناس الذين يبقون من هذا العهد، يعرفون إلى أي حد بلغت فتنة هذه الطائفة، وإلى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم. وإن الشخص الذي كان على وفاق معهم منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر، إنما كان فقط مدفوعاً بدافع الخوف منهم.

أما إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من رعاعهم. لقد كان كأساً طافحاً، وريحاً عاتية، ولكنها أخمدت[٣٣]».

تعليق لمجلة الموسم: «أتساءل عن رأي الكاتب نفسه في محنة الإسماعيلية على يد المغول، ماالذي استفاده العالم الإسلامي من القضاء عليهم وهم من كانوا قذى في عيون المحتلين المغول وهم المقاومون الأشداء عن حصون الإسلام، رنة الفرح والسرور التي أشار لها الكاتب أعقبها رنات من الأسى والأحزان والدمار المغولي الذي اجتاح بلاد الإسلام ولم يفرق بين سنة أو شيعة، مشكلتنا مع كتّاب الأهواء وفقهاء التعصب لاتنتهي وهي من تغذي روح العصبية الهوجاء وهي مانعاني منها حتى يومنا هذا..».. الطريحي

(٣٢) Grousset: L Empire des Steppes, P. 427.

(٣٣) الجويني: تاريخ جهانكساي، ج٣، ص٢٧٨.

أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ

لِلنَّاسِ أَعْظَمُ النَّاسِ مَنْزِلَةً

عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْشَاهُمْ

فِي أَرْضِهِ بِالنَّصِيحَةِ لِخَلْقِهِ

لَا وَرَعَ كَالْكَفِّ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَلَا سَخَاءَ

كَحُسْنِ الْخُلُقِ وَلَا عِبَادَةَ مِثْلُ التَّفَكُّرِ

كُتِبَ فُضَيْلٌ